لكنّ المشرق سبق ودوّن تفاصيلهما في عدده الصادر في تشرين الاوّل عن لسان احد الوفدَين من قبل مكتبنا الشرقيّ فأغنانا عن المراجعة

وليسمح لنا القرّاء بان ننتهي من هذا النظر الاجمالي بكلمة نجملها كسلك ختامه. لا غرو ان المطّلعين على الماجريّات العديدة التي استوقفتنا عندها الانظار يردّدون قول سفر الجامعة (٣ : ١١) انّ الله قضى على ارضه التحوُّل والتغيير ولا غرو فانّ الممالك دُوَلٌ كاسمها افلا يحقّ بالانسان أن يرفع بنظره الى ما هو اعلى واسمى من هذه الارضيّات لتأبيها وزوالها فيوطّد آمالهُ في دار القرار لدى ذاك الربّ العظيم الذي يضبط كلّ الدول في قبضته ولهُ في تصرُّفها الحكم الاخير. فاذا قرّت النفس في هذا المركز الثابت استرت لديها احوال الدنيا فلمحتها بنظر هادئ وعين قريرة لأنّها تعرف ان لا شيء يجري في عالم الزوال بغير علمه تعالى وهو يدبّر كل الامور لمجده ولخير مختاريه. وان أحدرت النفس نظرها من تلك المشارق العليا الى الارض رأت في وسطها قبّةً تحلّق في الهواء كالنسر المرتفع ألا وهي قبّة كنيسة بطرس هامة الرسل في الفاتيكان فهذه قبّة السلام يسكن مجوارها شيخ وقور يمثّل ملك الدهور ورب الارباب. فمن جرى تحت رايته امن الضلال ومن سمع منهُ اصاب الامان لأنّهُ هو سفير الله السلام الذي عند ولدهِ صرخت الملائكة: المجد لله في العلاء وعلى الارض السلام لمن فيهِ المسرّة

الالفاظ السحريّة

نظر للأب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

٤ التمدُّن

التمدُّن احدى الالفاظ التي تتلاعب اليوم بالعقول وتُفتن بها الالباب. تكرّرها المنشورات العامة ويردّدها الخطباء وتتلقفها الافواه. فكأنّ في ايرادها غنًى عن كل ايضاح وتبيان. وان سألت الذين ينطقون بهذه اللفظة السحريّة ان يوضحوا لك معناها ويعرّفوا فحواها اجابوك بازدراء ما الحاجة الى تعريف ما يدركهُ الجميع وكادوا يقرّفونك

بجواب تلميذي عماوس للسيد المسيح لمَّا سألهما عن الكلام الذي يتحاوران به (لوقا ٢٤ : ١٨) : « افأنت وحدك غريب في اورشليم » كيف لا تعلم ما هو التمدّن . وأن الحتّ عليهم وتخفّيت في السؤال رأيتهم يتلجلجون و يرتابون فيأتون بالاجوبة المتناقضة التي لا يُعبأ بها ولعلّهم ينتهون بنسبتك الى الجهل والغباوة وينظمونك في سلك المتأخرين وذوي الروح العتيق

ولأن هؤلاء « المتنوّرين » لم يستطيعوا ان يأتونا بكلام وافٍ ولا جواب شافٍ دَعْنا نسبر غور هذه اللفظة الدارجة على ألسنة الجموع فنستشفّ ما وراءها من الاسرار المكنونة والكنوز المدفونة

*

التمدّن لفظة لم ترَ في كلام قدماء العرب في الجاهلية ولأنهم لم يعرفوها لرضاهم بعيشة البادية . فكانوا اذا قصدوا المدن لم يتأثّروا فيها الّا ريثما يقضون اشغالهم فيسرعون الى التبدّي لأنهم كانوا يرون نفوسهم اذا ما احتُوِيَت المدن المعمّرة بمثابة السمك في الهواء والطير في الماء . وقد سبق حضرة الاب لامنس في مقالته عن البادية والحيرة (في المشرق ١١ : ٧٦٥) فبيّن ما اصاب العرب من البلاء بعد الفتح الاسلاميّ لكنّاهم في المدن وكم احتاج الخلفاء الراشدون الى ان يشتدّوا عليهم لئلّا يعودوا الى بدوهم فيتركون المدن خاليةً معرّضةً لغارات العدوّ . وكان اذا ونّب احد اهل البادية يخشونة العيش وسكناهم في الصحاري مع الوحوش اجابوا مع النعمان بن المنذر على كسرى انهم آثروا العيشة البدويّة لزهم ونخوتهم فجعلوا حصونهم ظهور خيلهم ومهادهم الارض وستوفهم السماء وجُنّتهم السيوف وعدّتهم الصبر على خلاف غيرهم من الامم الذين جعلوا عزّهم في الحجارة والطين اي البيوت والقصور

ولكن ما لنا والجاهليّة فانّ التمدّن اليوم اشهر من نار على علَم ولا بُدّ انّ واضع هذه اللفظة وان مولّدةً جعلها اسماً لمسمّى شريف . فالتمدّن من حيث اللفظ الدخول في المدن والاقامة فيها كما يقال تبدّى الحَضَري اذا اقام في البادية . امّا المعنى الاصطلاحيّ فالمراد به لاوّل وهلة الاقتداء باهل المدن والتزيّي بأزيائهم والتخلّق بأخلاقهم والاقتباس بآثارهم

فما هي رعاك الله تلك السجايا التي خُصّ بها اهل المدن حتى تفاخروا بها على من

سواهم . ليس الجواب على هذا بامر سهل فان كثيرين يظنون ان صفات التمدن تنحصر في بعض ظواهر الانس والتأدب في الحياة الاجتماعية اصطلح عليها اهل المدن في معاملاتهم اليومية كأكلهم وشربهم ولبسهم ومبيتهم واستقبال بعضهم لبعض الى غير ذلك من العادات التي ألفها اهل المدن . ونحن لا ننكر انها تدخل في خواص التمدن لأن سكان المدن بوفرة عددهم وتباين غايتهم واحتياج بعضهم الى البعض الآخر وتضافرهم في الاشغال وطول اتصالهم على شؤونهم واخلاقهم قد يصبحون ألين عريكة وادمث اخلاقاً فتكرم شمائلهم وتشرف شيمهم ولكن ليس على هذا يتوقف التمدن وربما كانت ظواهر الانس في القرى ارق والطف منها في المدن لاسيما ان القرويين لسذاجتهم اسلم طوية واخلص نية واصدق لهجة فلا يتراءون بما ليس فيهم ولا يعرفون التأنق الكاذب والمداهنات الخادعة

ومنهم من يجعل التمدن في حرية الفكر وحرية السلوك وحرية القول والذياع فيستسلم الانسان الى كل اهوائه ويستبد بآرائه ويطلق لشهواته العنان في نبذ كل حاجز او سلطة تعوقه في رغائبه . فينقاد لما يفسد الاخلاق وينتهك حرمة الآداب ويقتحم ذرى الشرائع ويسوغ لنفسه ما لا يحلله الدين او الضمير فهذا هو على زعمهم التمدن يبنون عليه مبادئهم السيئة ويحببون بها الى من لا يوافقهم على مذهبهم

فلعمري ان كان هذا هو ما يدعونه تمدناً فان المدنية تتفضل عليه لأن الصحيح اذا ما أتوا افعالاً قبيحة واجترحوا الآثام وارتكبوا المحظورات انما يعذرون لجهلهم وانشوتهم على الاخلاق الشرسة وانطباعهم على الملكات السيئة . اما المتمدنون الذين انكشف الباطل عن بصائرهم وتمحص لهم الحق ورضوا الفاريق الأدب فاي عذر يقبل لهم اذا طمسوا نور عقلهم ونقضوا اركان الهيئة الاجتماعية المبنية على العدل والصلاح ومراعاة السنن الألفية والشرائع المدنية وطاعة الانسان لربه ولرؤسائه واحترامه لنفسه والقيام بحقوق قريبه

وليس بأقل من هؤلاء شططاً وضلالاً الذين يجعلون مناقضة بين الدين والتمدن فيذهبون ان التمدن يقوم بالفضائل الطبيعية والصفات الألفية الرضية بيد انهم يفرزون عنها الدين كأن التمدن يمكنه ان يثبت بلا تدين فيجهلون انهما كاخوين شقيقين او بالاحرى كالنفس والجسم لا ينفصلان الا لتطبهما . وان المستقيم اذا

تأصّل في القلب اثمر المدنيّة لا محالة. امّا التمدّن فانهُ يزهق اذا ما فارقهُ الدين فيُصبح كالجثّة الهامدة التي لا تلبث ان تتحلّ وتفسد بانفصال النفس عنها .

فكلّ هذه الاوهام التي غلبت على عقول بعض المحدثين في عصرنا قد صوّرت التمدّن في مخيّلتهم على غير صوابه فيتحتّم علينا ان نبيّن حقيقتهُ واقسامهُ وشروطهُ لئلّا ينخدع اهل بلادنا ببهرجة هذا الاسم ويحملونهُ على غير معناهُ فنقول:

انّ التمدّن تعريب لاسم شاع عند الغربيين منذ اجيال عديدة (civilisation) يوافقهُ عند العرب اسم الحضارة ولفظ العمران . واوّل من استعمل هذه اللفظة بين العرب كَتَبة القرون المتأخرة من اهل الاندلس كابن خلدون في مقدّمته والمقري في نفح الطيب . ثم تواتر استعمالها حتى دخلت اليوم في اللغة . فمعناها اللفظي قد اتّضح لك في ما سبق بل وقفت على معناها الاصطلاحي القريب . فبقي ان نعرّفها تعريفاً تامّاً مستوفياً لمعناها الشائع اليوم بين اهل النظر

يُحَدّ التمدّن بمجموع النظامات المدنيّة والسياسيّة والدينيّة التي تستعين بها الامم لبلوغ غايتها في خدمة هيئتها الاجتماعيّة وخدمة افرادها المادّيّة والادبيّة

وليس التمدّن سوى احدى خواصّ الطبيعة البشريّة التي انشأها الله لتعيش بالالفة فتقوى بالاجتماع وتسدّ حاجاتها بضمّ القوى وتقرّب اليها وسائل المعاش بتقسيم الاعمال وتردّ عنها ما يتهدّدها من الآفات وتنمو وتترقّى في الكمال . وقد كذب الذين زعموا بان البشر كلّهم ابتدأوا بالعيشة البدويّة فكانوا يعيشون على شبه الوحوش في الغابات والكهوف . على اننا نسلّم بانّ العيشة الالفيّة اختلفت درجاتها وتنوّعت على حسب البلاد وطوارئ الزمان فانّ البشر الاوّلين كانوا اذا احتلّوا ارضاً جديدة وهم قليلو العدد يحتاجون الى القوت القريب بصيد الوحوش واكل الاثمار والبقول . ويتّخذون من الكسوة ابسطها واخشنها كجلود الحيوان . ويبنون من المساكن اقلّها مؤونةً وشغلاً كالاكواخ وربّما اتّخذوا الكهوف الطبيعيّة والمغاور اذ هي تغنيهم عن غيرها وتحرزهم من الضواري التي كانت في اطوار العالم الاولى اعظم اجساماً واشدّ قوّةً واكثر عدداً منها في يومنا كما تدلّ عليه هياكلها المكتشفة في عهدنا . وكذلك كانت احوال كرتنا في تقلّب وتحوّل وقشرة الارض اذ ذاك ارقّ واسرع تخرّقاً فتوالى الزلازل وتنفجر النيران الداخليّة من البراكين ويكثر طغيان المياه وتشتدّ الاتواء . فكلّ

هذه الاحوال كانت تضطرّ طوائف من الناس الاوّلين الى احوال من المعاش اقرب الى البداوة منها الى الحضارة

على انّ ذلك لم يعمّ البشر اجمعين فانّ منهم من احتلّوا بلادًا مخصبة متوفّرة الخيرات كثيرة المرافق يغلب عليها اعتدال الشتاء والصيف كوادي دجلة والفرات وكوادي النيل. فانّ اهل تلك البلاد اسرعوا الى توفير وسائل الالفة فمصّروا الامصار وابتنوا المدن والمنازل الرحبة والقصور الشاهقة التي اكتشف عليها الاثريّون بالحفريّات المتعدّدة منذ خمسين سنة وهي تُرقّى الى اطوار البشر الاولى وليست آثارها الهندسيّة والصناعيّة دون آثارنا بل يأخذ العجب من دقّتها وحسن صنعها الذين يزورون المتاحف الاثريّة وفيها من تلك البقايا اشياء كثيرة قد فقد اليوم سرّ اصطناعها

وان القينا النظر الى تلك الامم العظيمة التي قامت في سالف الاجيال كالبابليين والعيلاميين والكلدان والمصريين والصينيين والفرس واليونان والرومان وجدنا لهم تمدّنًا واسعًا تشهد عليه تواريخهم وآثارهم التي صبرت على آفات الدهر. فلا يسعنا الّا أن نقرّ لهم بالحضارة والعمران

نعم انّ تمدّن تلك الامم الغابرة لم يشبه تمدّننا الحالي بيد انّنا لا نستطيع ان نقيس نظاماتها بنظاماتنا لاسيّما انّ التمدّن العصريّ من حيث مبادئه الاديبيّة قد تشرّب اصول الدين النصرانيّ شاء ام أبى وهذه الاصول كما لا يخفى كانت الشعوب القديمة تجهلها فلمّا شاعت بين الامم المتأخرين اجمع اصحاب الرأي السديد على ترجيح تمدّنها لكنّ الفضل ليس للهيئة الاجتماعيّة الحديثة وانّما هو للدين الذي منهُ استعارت هذه المبادئ الشريفة فجرت عليها واهل بعض هذه الامم نسيت فضل الكنيسة مربّيتها كما يفعل الاحداث الذين يلطمون ظئرهم باليدين بعد ان رضعوا حليبها

فاذ انكشفت لك حقيقة التمدّن وتباين طبقاته بين الامم يسوغ لنا بان ندخل في قلب المسألة ونبيّن بايّ شيء يقوم التمدّن بوجه الاجمال فنفرز بين البلاد التمدّنة وغيرها

انّهُ لمن المقرّر الاكيد انّ المجموع العمرانيّ لا يثبت الّا بثلثة امور اذا اختلّ منها واحد تضعضع وتلاشى. فالامر الاوّل هناء عيش المرء في حياته المادّيّة والاديبيّة. والثاني حسن مواصلاته مع ابناء جلدته. والثالث حظوته بنظام سياسي لائق

وتدبير موافق. فاذا كان انسان متمتعاً في بلدهِ بهذه الاشياء الثلثة عُدَّ بلدهُ متمدناً. ويكون التمدُّن ارقى او احطّ على قدر ما تتوفَّر هذه الامور او تنقص. فالامر الاوَّل يؤكد لهُ الهناء في عيشتهِ الفرديَّة. والثاني في عيشتهِ الاهليَّة والاجتماعيَّة. والثالث في عيشتهِ السياسيَّة والوطنيَّة

فالشرط الاوَّل للتمدُّن ان يجد الانسان ما يسدّ كلّ حاجاتهِ. ففي الانسان جسدٌ يحتاج الى ان ينشأ وينمو ويقوى ويردّ عنه الاضرار والآفات وكلّ ذلك لا يتمّ الَّا بتوفّر اسباب المعاش من قوت وملابس وسُكنى وهذه المرافق المادّيَّة لا تُدرك الَّا بقوَّة حاكمة تنشط الاشغال وتوسّع نطاق الحرف والصنائع وتنهض بالزراعة من خولها وتوفّر وسائل المواصلات لإنفاق المحصولات او استجلابها. ثمَّ للانسان عقلٌ غريزيّ اذا لم يثقفهُ بقي قليل الادراك لا ينتفع بهِ الَّا في اشياء زهيدة. وان هذَّبهُ ووسّع مداركهُ احرز بهِ منافع جمَّة. وذلك لا يُنال الَّا بانشاء المدارس والتعليم وضروب المكاتب للفنون الجميلة. وللانسان نفسٌ ناطقة شريفة قابلة للفضائل والأخلاق الحميدة والاميال الصالحة التي بها يزيد كمالهُ. فلا بُدَّ لهُ من إمام يرشدهُ ورئيس يهذّبهُ فيجرّدهُ عن ملكاتهِ المنحرفة ويزرع في قلبهِ العادات الحسنة. وكلّ ذلك مما لا يتوز بهِ الانسان الَّا بدين يهديهِ الى الصلاح ويردُّهُ عن القبيح

والشرط الثاني للتمدُّن انَّما يتوقَّف على المواصلات التي تجمع اهل كلّ بلد بعضهم مع بعض. لأنَّ الانسان من حيث هو عضوٌ من اعضاء الهيئة الاجتماعيَّة يرتبط بقريبهِ كما يرتبط قريبهُ بهِ فهو كحلقة من تلك السلسلة العظيمة التي لا تسقط احدى حلقاتها الَّا بانفصام السلسلة وانقراطها. ومن هذا القبيل يعيش المرء عيشة بيتيَّة تربطهُ باهل بيتهِ من والدين وزوجة واولاد. ويعيش عيشة مدنيَّة مع اهل بلدتهِ فيخدمهم ويخدمونهُ ويعاملهم ويعاملونهُ. ولا بُدَّ لكلّ ذلك من سلطة حاكمة ترعى الحقوق وتجري بالعدل والانصاف ولا تحابي بالوجوه وتأخذ بناصر المظلوم على الظالم ليقوم كلّ انسان بواجباتهِ المفروضة عليهِ ولا يتعدَّى على حقوق جارهِ. وكذلك في المجتمع البشري من أُصيب بآفة في جسدهِ او مالهِ فلا يمكنهُ ان يقوم بحاجتهِ فمنهم المرضى والعجزة واليتامى والفقراء فيقتضي لكلّ هؤلاء مساعدون يُعنَون بحاجاتهم. فيعيّن الرؤساء مَنْ يهتمّ بامرهم لئلَّا تودي بحياتهم آفات الدهر

والشرط الثالث للتمدُّن أن يأمن اهل بلدٍ على صفاء عيشتهم من اهل بلدٍ آخر فيسدُّون ثغوره ويجهاون لهُ الحامية في وجه اعدائهِ ثم ينظّمون لهُ النظامات العموميَّة والمشروعات الوطنيَّة ويرتّبون لكل ذلك الماليَّة الكافيــة فتُجتبى الاموال وتوزَّع على مقتضى الحاجات. وذلك كلّهُ لا يستغني عن هيئــة تدبيريَّة من رئيس ومرؤوس ولمير ومأمور مهمــا اختلفت الهيئة الحاكمة من سلطنة او ملك او مشيخة او جمهوريَّة. وبذلك تقوم العيشة السياسيَّة التي تجمع كل افراد الوطن فتجعلهم جسماً واحداً ادبيًّا مستقلًّا بذاتهِ كافيًا لنفسهِ ممتازًا عن غيرهِ

فهذه هي شروط التمدُّن الصحيح فان اردت ان تعرف اي بلدٍ من البــلاد يتمتَّع بهِ او يخلو منهُ فانظر أهو حاصل على هذه الشروط التي وصفناها ام لا وتكون درجة تمدُّنهِ على قدر حصولهِ عليها ورسوخ قدمهِ فيها

والحقّ يقال ان الدول النصرانيَّة الاوربيَّة قد جرت بموجب هذه الشروط اكثر من سواها وفي هذا سرّ نجاحها وتقدّمها فانها بنظاماتهــا وسُنَنها وشرائعها قد ضمنت للافراد الحياة الهنيئة بحيث يجدون على وجه الاجمــال سعادتهم الماديَّة والادبيَّة في المشروعات المدنيَّة التي سنَّتها تلك الامم سواء كانت لقوام معاشهم او لتهذيب عقولهم بانشاء المدارس لاصناف العلوم وضروب الفنون او لتثقيف طباعهم واصلاح نفوسهم بمساعدة ارباب الدين وكذلك عرفت تلك الدول أن تؤلف بين طبقات الناس وتؤدي لكل ذي حقّ حقوقهُ فتساوي بين الصغير والكبير وتنتصر للضعيف على القويّ ولا تسهو عن التكوبين وتقيم للمرضى مستشفيات عامَّة وللصغار ميامّ وللعجزة مأوى وللفقراء ملاجئ. كما أنها بدساتيرها وقوانينها تفكّر بتعزيز جانب الوطن ورفع شــانهِ والذبّ عن حقوقهِ وتوفير ماليَّتهِ وتوسيع نطاق اعمالهِ التجاريَّة والزراعيَّة والاستعماريَّة

اما مصدر هذا التمدُّن الحديث الذي رفع باوربَّة الى هذه الرتبة الساميــة فهو بلا مراء الدين المسيحي كما يقرّ بهِ كلّ المتزهّدين عن الاغراض. وان تعقَّبتَ الشروط الثلاثة التي سبق لنا ذكرها وجدت انَّ للكنيسة في تحقيقهــا السهم الاعظم. فانَّ الكنيسة بمشروعاتها الاهليَّة والمدنيَّة والادبيَّة هذَّبت الدول الاوربيَّة وبلَّغتها اوج فخرها بعد ان عطفت عليها في مهدها كالأمّ الرحوم وسهرت على شبابها

فخذ مثلًا العيشة الماديَّة فلا يستطيع احدٌ ان ينكر انَّ الكنيسة برهبانيَّاتها منذ

القرن الخامس قد طوّقت اوربّة منناً لا يفي بها شكر فانّ الجمعيّات الرهبانيّة وجدت قبائل البرابرة قد انقضّت على تلك البلاد انقضاض الكواسر لا تعيش الّا من الغزوات والصيد فاخذت تعلّمها ضروب الصناعة ولاسيما الحراثة حتى انّ رهبانها كادوا يحرثون اربعة اخماس اوربّة كلها وكانوا هم يعيشون عيشة قشفة يرضون باليسير الزهيد ويقضون معظم سنتهم صوماً فيرزّعون على الفقراء والبائسين ما تغلّ الاراضي المستقيّة بعرق جبينهم. وكان الناس يقبلون الى ادبرتهم و يسكنون بجوارهم ويتعلّمون منهم شغل الزراعة والبناء فيعمّرون المساكن ويخضرون الامصار. ولو اردنا ان نعدّد المدن الاوربيّة التي ينتمي اصلها الى الجمعيّات الرهبانيّة لاضاف جدولها على عدة صفحات

وكان من هذه الجمعيّات الرهبانيّة طوائف تختصّ بفنّ البناء. وغيرها يدّ الجسور على الانهار ومنها ما كان يهتمّ بالصنائع الميكانيكيّة او بنسخ الكتب ولولا الرهبان لفقد العدد الاوفر من آثار حكمة اليونان واعمال الرومان كما تشهد على ذلك خزائن الكتب الاوربيّة

وان اعتبرت حياة الانسان العقليّة والعلوم وجدت انّ الكنيسة وحدها نجّت المعارف البشريّة من غرقها لمّا زحفت برابرة الشمال على اوربّة فصانتها في ادبرتها وجعلت كل دير منها معهداً للعلوم والفنون الجميلة فكانت تُقبل اليها الطلبة افواجاً. ولمّا هدأت الحروب وعاد السلام الى الدول في القرون الوسطى انشأت الكنيسة في ايطالية وانكلترّة والمانية وفرنسة تلك الكليات التي تخرّج فيها كل مشاهير العلماء في تلك الامصار. وكانت عدّة رهبانيّات جعلت التعليم وتهذيب الشبيبة من اخص فرائضها كالرهبانية البندكتية والرهبانية الدومنيكية والرهبانية الفرنسيسيّة ومن بعدها الرهبانية اليسوعية. ولا نجد علماً من العلوم البشرية الّا ولابناء الكنيسة فيه متون من التآليف وقد سبق لنا في المشرق (٦ : ١٥) ردّاً على مجلّة مصريّة مقالة « في الكنيسة والعلوم الفلكية » فقس عليها بقية العلوم. وكلّ ذلك قبل انشاء الدول لمدارسها الوطنية بزمن طويل

اما حياة الانسان الادبيّة فلا نظنّ احداً ينكر علينا انّ ما يمتاز به التمدّن العصريّ من جهة الآداب انّما استقاهُ كلهُ من تعاليم الكنيسة حتى قال الفيلسوف البروتستاني گيزو (Guizot) ان التمدّن الفرنسويّ كلهُ الذي فاق على تمدّن بقيّة

الامم انما كان عمل الاساقفة وهم الذين اصطنعوا فرنسة كما تصطنع النحل خلاياها. ويا ليت بعض الدول تبالغ اليوم في اقتباسها عن الدين مبادئهُ فانها لو فعلت لزادت في سعادة رعاياها وأمنت هي المشاغب والفوضى وكل الاخطار التي تتهدَّد المجتمع البشريّ بتناقص الدين لانَّ التمدّن الصحيح يقوم بالآداب اكثر منهُ بوفرة الاسباب الماديَّة او بترقي العلوم نفسها. ولا أدب بلا دين. فان شئت ان تعرف الدرجة التي بلغها احد البلاد في سلَّم التمدّن فانظر الى آدابهِ ودينهِ وان رأيت الآداب فيهِ قد تقهقرت وحبل الدين في انتقاض فتحقَّق انَّ تمدّنهُ في هبوط وسوف يعود قريباً الى الهمجيَّة. ويسرّنا ان نختم هذا الفصل الوجيز بنقل ما كتبهُ في هذا الصدد احد مشاهير وطننا المعلم بطرس البستاني في دائرة المعارف حيث قال وفي قولهِ تأييدٌ لكلامنا السابق:

هو مقرَّر انَّ الدين ليس هو التمدُّن . . . ولكن ان لم يكن هو التمدُّن فهو مبدأ التمدُّن فمنهُ ومن الواجبات التي يفرضها والغاية التي يبيّنها للحياة البشريَّة والنسبة التي يضعها بين الاجناس والرتب والشعوب وبالاختصار من تعليمهِ الادبيّ تنبجس ينابيع النظامات والاخلاق اكثر مما سواه

ثم قابل بين تمدّن الشعوب القديمة التي كانت قبل المسيح والشعوب المسيحيَّة التي أنشئت وفقاً لانجيلهِ المقدَّس فقال:

وبالاختصار فكلّ التمدُّنات التي كانت قبل المسيح تشابه هذا اي باناً تنكر المساواة الاصلية في الناس. واليهود انفسهم الذين كان عندهم مستودع الحقائق الادبية والدينية لم يكونوا يقبلون المساواة الاَّ في دائرة ضيقة تجاهها عديمة الجدوى. اما اساس الادب الديني الان فأخويَّة الناس جميعاً الذين خالقهم واحد وهو الله وابوهم واحد ونفوسهم متساوية وهم اعضاء عائلة واحدة متفرّقون. وهذا هو حاجزٌ لا يُجتاز قائمٌ بين التمدُّن القديم والتمدّن الحديث الذي ينبوعهُ الانجيل والذي نجاسهُ كلُّهُ قد ثبت لسرعة نقل مقيدة الاخاء الدينيّ من الكنيسة التي علَّمت بهِ الى المملكة التي تقرّهُ وتعضدهُ فهذا هو عاقبة مبادئ التمدُّن التي سادت وتسود الى الآن بين الناس

فيا حبَّذا لو ادرك اهل بلادنا هذه القضايا فلا ينخدعوا بظواهر التمدُّن وقشرتهِ دون لبهِ وحقيقتهِ. فهيهات ان تدعى متمدّنين باستعارتنا من الاجانب مجازفةً بعض عاداتهم السيئة كالازياء (المودات) والمراقص والمراسح الخلاعيَّة والروايات البذيَّة والمضاربات التجاريَّة فكلّ ذلك والتمدُّن على طرفي نقيض. وقد وضع السيد المسيح الاساس الاوَّل للتمدُّن بقولهِ عزَّ من قائل (متى ٦ : ٣٣) : «اطلبوا اولاً ملكوت الله وبرَّهُ وهذا كلُّهُ يزاد لكم»